

استراتيجية طه عبد الرحمن الحجاجية في قراءة التراث المنطقي-نظرية العوالم الممكنة أنموذجا-

Taha Abdel Rahman's strategy argumentative in Reading the Logical Heritage- The theory of possible worlds as a model-

سهام مرمي⁽¹⁾ * أ.د. زبيدة مونية بن ميسي⁽²⁾

⁽¹⁾ جامعة باتنة 1، مخبر حوار الحضارات والعولمة، الجزائر، -Sihem.marmi@univ-batna.dz

⁽²⁾ جامعة باتنة 1، مخبر تكوين المجتمعات وديناميكية المجالات، الجزائر،
Zoubida.benmissi@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2024/09/15؛ تاريخ القبول: 2025/10/03؛ تاريخ النشر: 2025/12/30

ملخص:

إنّ المقاربات الاستدلالية التي ترد داخل منطق اللغة الطبيعية تشكل مكونا جوهريا للخطابات الفلسفية، يستعين بها المخاطب كفاعلية تقوده نحو تأسيس نهجه المعرفي، أو كوسيلة يوظفها في قراءته المقترنة بالمعالجة الحجاجية. وهذا ما تصبو إليه الإنتاجات الطاهائية الفكرية التي تتجلى لدى المتلقي ضمن أسلوبه المقترن بالآليات المنطقية واللغوية الحجاجية في بناء الخطاب، والتي ستوضح معالمها ضمن قراءة طه عبد الرحمن لنظرية "العوالم الممكنة".

كلمات مفتاحية: نظرية العوالم الممكنة؛ الفعالية الحجاجية؛ الخطاب؛ مبدأ الاعتراض.

Abstract:

The deductive approaches embedded within the logic of natural language constitute a fundamental component of philosophical discourse. They function as epistemological instruments through which the addressee formulates a mode of reasoning that underlies

argumentative engagement. Such approaches, when applied to discourse analysis, aim to establish an intellectual and rhetorical efficiency that manifests in the recipient's interpretive activity. This efficiency is reflected in the logical and linguistic structures governing the construction of discourse, whose features are further elucidated through Taha Abdul Rahman's interpretation of the Theory "Possible Worlds".

Keywords: Theor of possible worlds; argumentative effectiveness; discourse analysis; principle of objectio.

المقدمة:

إن اتجاه العقلانية الفلسفية المعاصرة يقوم على مقاربات وأدوات تأثيرية، يتجلى دورها في بناء المنظومة الخطابية الطبيعية. إذ يعتمد عليها الخطيب قصد إيضاح القضايا التي يثيرها، أو المواقف التي يسعى إلى تبريرها والدفاع عنها.

إلا أن الأداة التبريرية والدفاعية يصنف انتماءها إلى الأسلوبية الحجاجية، التي تعد من أهم المقاربات التأثيرية المحققة لفعل إنجازية-بناء-الخطاب.

ووفق هذا النسق المهجي تخلق الخطابات الطاهائية، التي تتصف بخاصية الصناعة الحجاجية، وهي تلك الممارسة العلمية للمنطق اللاصناعي.

وبالاعتماد على المنطق اللاصناعي دون طه عبد الرحمن أسلوبه الحجاجي كاستراتيجية فعالة في إنتاجاته الإبداعية، أو في قراءته التجديدية للتراث المنطقي.

على هذا الأساس الأخير جاءت هذه الدراسة بهدف بيان التنظير الحجاجي، الذي وظفه طه عبد الرحمن في تقويمه لفكر الإمكان ومبدأ أفضلية العالم عند الغزالي، ولتبين ذلك وظف المنهج التحليلي والمنهج المقارن.

وعليه ما طبيعة التقنيات الحجاجية التي أدرجها طه عبد الرحمن في قراءته التجديدية لمظاهر الإمكان ومبدأ أفضلية العالم في فكر الغزالي؟

المبحث الأول: حجاجية الخطاب الفلسفي

من نافل القول الحديث عن حضور أسلوب المحاجة في الخطاب الفلسفي، باعتباره متضمن لحجج مسترسلة طبيعياً يعتمد عليها المخاطب -المفكر- بغية إحداث الإقناع في

الجمهور.

إقراراً لهذا المقام الكلامي يتطلب طرح التساؤلات التالية: ما المقصد بحد الخطاب؟ وكيف تؤسس الحجاجية لكفاءة معرفية متناسقة داخل الخطاب الفلسفي؟

المطلب الأول: الخطاب مفهوماً

من المعلوم أن المفاهيم التي تحيط بالمصطلحات تتباين بتباين الآليات التي يتبناها المفكر في بناء الوضع التعريفي للمفهوم، التي تحتاج لضبط وتحديد لما تحتويه من لبس وغموض.

وعليه: ما ماهية الخطاب لغة واصطلاحاً؟

أولاً: الخطاب لغة

ورد الخطاب في متون المعاجم العربية على أنه من مادة {خطب}، إذ يقال خاطبهم في الأمر بمعنى حدثه بشأنه.⁽¹⁾ ويقال ما خطبك؟ أي ما أمرك؟ ويقال: هذا خطب جليل وخطب يسير، والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال.⁽²⁾ ويقال خطب الخاطب خطابة بمعنى كلامه خطبة.⁽³⁾

ومنه يتبين أن الخطاب كما أوردته المعاجم العربية عبارة عن كلام مسترسل باللغة الطبيعية إذ يمكن أن يكون أمراً، شأناً وحالاً تحدث فهم المخاطبة.

ثانياً: الخطاب اصطلاحاً

إن المقاربة المعرفية لمصطلح "الخطاب" تحدد مفهومه بمقتضى بنية الاختصاص التي ترد فيه. فالخطاب عند ميشال فوكو يتمثل في ذلك الجمع المعقد من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي أعيد إدراجها في عمليات تحليل الخطاب، الذي يحمل سلطة للمتكلم بمقصد أحداث التأثير في الجمهور.⁽⁴⁾

ومقتضى ذلك أن الخطاب وفق منظور ميشال فوكو عبارة عن بنية كلامية لغوية يكون

(1) مجمع اللغة العربي، معجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2004، ص243.

(2) ابن المنظور، لسان العرب، ط4، دار الصادر، بيروت، 2005، ج5، ص97، 98.

(3) الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، قاموس المحيط، مراجعة ابن محمد الشامي، زكريا جابر محمد، د ط، دار الحديث، القاهرة، 2008، ص478.

(4) مرتضى جابر كاظم، اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، ط1، منشورات ضفاف، لبنان، 2015، ص24، 25.

ففيما المتكلم متحكم في العملية التخاطبية بغية إحداث التأثير في المتلقي، ويكون محتوى الخطاب دراسة تحليلية للواقع بمختلف أطره الاجتماعية.

وحسب أبو بكر العزاوي الخطاب عبارة عن بنية منطقية طبيعية كونه خاضع لشروط وعلاقات منطقية على سبيل علاقة الشرط والسببية، الاستلزام، الاستنتاج والتعارض.⁽⁵⁾ بمعنى أن أبو بكر العزاوي قد أضاف الصفة المنطقية للخطاب، إذ لا خطاب من غير أن يكون محتكما ملتزما بالعلاقات المنطقية.

أما الخطاب وفق ضبط طه عبد الرحمن ليس قائم على العلاقات التخاطبية فقط، وإنما هو علاقة استدلالية تواصلية أيضا باعتباره كلام موجه إلى الجمهور هدفه افتعال الفهم حول قضية ما.⁽⁶⁾ وهذا يعني أن الخطاب الطاهاني ذو طبيعة مركبة استدلالية. حاجية تواصلية.

من منطلق التحليلات السابقة يمكن القول إن الخطاب عبارة عن متتالية من الجمل اللغوية موضوعة فيه طبيعيا، وتكون بنيته ملتزمة بخصائص المدرجة من طرف سلطة المخاطب: استدلالية، منطقية، حاجية، تحليلية وما إلى ذلك،

المطلب الثاني: الأسلوبية الحجاجية في بناء الخطاب الفلسفي

لقد أضحى الخطاب الفلسفي تصورا بلاغيا حديثا، يستثمر خاصية الإقناعية من أسلوبيته الحجاجية المستمدة من نظريات الحجاج المعاصرة، والتي يستند إليها الخطيب في بناء نظرياته وأطروحاته ومفاهيمه الفكرية.

إذن ما المقصود بالحجاجية؟ وفيما تتمثل مستوياتها؟

أولاً: في معنى الحجاجية

إن استخدام منطق اللغة العادية كما أقرها ديكرز يعتبر أحد خصائص الحجاجية⁽⁷⁾. وهي الخاصية التي يقوم عليها الخطاب الفلسفي، باعتبار أن العقلانية في الفلسفة المؤسسة على أسلوب المحاججة لا يمكن أن تكون طبيعتها صورية أو منطقية حسابية،

(5) أبو بكر العزاوي الخطاب والحجاج، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، لبنان، 2010، ص18، 19.

(6) طه عبد الرحمن اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، 1998، ص215، 226.

(7) Oswald Ducrot، Le dire et le dit، éd 'minuit' paris، 1984، p220.

وإنما هي ذات طبيعة معيارية كون الخطاب الفلسفي له صلة بالمجتمع⁽⁸⁾ وقد عرف "ناصر عمارة" الحجاجية بقول له ما نصه: «سلسلة إثباتات لغوية تقوم بتوجيه الخطاب إلى إنجاز أغراضه»⁽⁹⁾.

ومنه يتضح أن الحجاجية هي تلك المتتاليات اللغوية يسترسل بها الخطيب مضمون خطابه، بغية تحقيق بنيته والوصول إلى الأهداف المراد بلوغها إما إثباتاً، دحضاً أو إيضاحاً وغيرها كثير.

أمّا ماير فقد أطلق عليها مصطلح الخطابة الممكنة وهي حسب ذات طبيعة إشكالية "لأنّنا نتحاور حول إشكالات قبل كل شيء".⁽¹⁰⁾ هذا ما يمنحها الطابع الجدلي الذي يؤسس لحوار حجاجي قائم على عدة أنواع من الحجج.

ومنه يتبين أن الحجاجية من خصائص اللغة الطبيعية، التي يعتبرها الخطيب وسائط بنائية لخطابه.

ثانياً: مستويات الأسلوبية الحجاجية:⁽¹¹⁾

إن الانجاذية في الخطاب تعتمد على أسلوب الحجاجية، من خلال إدراج وسائل متعددة يمكن عدها في مستويات ثلاث:

1. مستوى المفهوم: بفضل القدرة التجميعية والاحالية التي يقوم بها المفهوم تجعل الخطيب ينتقل من تصور المفهومات إلى الإنتاجية الفكرية، وهذا مرده أن المفهوم قوة حجاجية.

2. مستوى النموذج الجدلي: بمقتضى أن حركة الأنموذج-براديغم-جدلية، وإن الفلسفة كما يقول هوسرل " كل شيء فيها موضوع للجدل".⁽¹²⁾ يكون عامل المحاجة في

(8) عمارة ناصر الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، ط1، منشورات الاختلاف، لبنان، 2009، ص 135.

(9) المرجع نفسه، ص 104.

(10) Michel Mayer، qu'est-ce que l'argumentation? librairie philosophique، j. VRAIN، paris، 2005، p10.

(11) عمارة ناصر، الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، المرجع السابق، ص 141، 144، 148.

(12) ادموند هوسرل، الفلسفة علماً دقيقاً، ترجمة، محمود رجب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2002، ص 25.

الخطاب متغير لغوي، لأنه يغير الحقيقة التي يتوصل إليها الخطيب، إذ يقوم بهدمها ثم يعيد بناءها وفق براديجم جديد.

3- مستوى السلطة: إن الامتثال إلى بناء خطاب فلسفي يعتبر موضع حجاجي متولد من انشغال الفيلسوف بذاته أو ما يسمى بالفلسفة سلطة لذاتها، إذ لا يحتاج الفيلسوف أن يستدعي وسائل خارج نطاق منطق اللغة الطبيعية، لأن الأبحاث الفلسفية حسب ديكرو في هذا العصر "تؤدي فيها الحجاجية من خلال السلطة الوظيفية المرجعية".⁽¹³⁾

وبالتالي الفيلسوف هنا مالك لحدسه الفلسفي باعتباره ذات فاعلة منتجة لأفكاره، الذي له سلطة عليها أو يستعين بالسلطة المرجعية في تحليل أفكاره ويقصد بها العودة إلى الفلسفات السابقة. أفلاطون، أرسطو، ديكارت، كانط وغيرهم كثير.

بناء على ما تقدم يتبين أن الأسلوبية الحجاجية تعتبر استراتيجية معرفية ومنهجية يتبناها الخطيب بغية إنشاء خطاباته المعبر عنها باللغة الطبيعية، والمتميزة بقوة البرهنة والاستدلال إذا ما تم الاقتداء بمستوياتها.

المبحث الثاني: الممكن ومسألة أفضلية العالم عند الغزالي

إن مصطلح نظرية العوالم الممكنة مصطلح معاصر ذو طرح جديد، شهد إنجازات منطقية عديدة في ميدان تحليل الدلالي لمنطق الموجهات، وهو منطق مختص بمعالجة القضايا المركبة بين الضرورة -الوجوب- والإمكان -الجواز-.

انتهجه طه عبد الرحمن بغرض تقويم وتحليل فكر الإمكان بين العوالم الممكنة وأفضلية عالم الواقع بالاعتماد على أدوات التحليل والاستدلال الحديثة.

إذن إلى أي مدى تمكن طه عبد الرحمن من ضبط وتقويم ماهية الإمكان عند الغزالي؟

المطلب الأول: العالم الممكن وخواصه

استعان طه عبد الرحمن في قراءة الممكن عند الغزالي بوسائل منطقية، وهذا بمقتضى أن فكر الغزالي قائم على مسلمة أن المنطق معيار كل النظر.

والمتفحص الدقيق في الخطابات الطاهائية يتبين له منذ الوهلة الأولى مدى قدرته

(13) Oswald Ducrot. Le dire et dit, op.cit., p169.

الحجاجية في بناء المفهوم.

إذن: ما هي الإضافات التجديدية لطله عبد الرحمن في الممكن الذي وضعه الغزالي؟

أولاً: معنى العالم الممكن

طرح طه عبد الرحمن فكرة العالم الممكن عند الغزالي، وبرهن عليها انطلاقاً من خاصية الوجود العقلي للعالم الممكن.

وأقر أن الإمكان عند الغزالي "ليس بشيء مستقلاً بذاته"، وإنما المستقل بذاته عند الغزالي متمثل في الواقع لا في الإمكان. ووفق هذا التفسير فالإمكان لا يمكن إطلاقاً أن يكون عنصر من عناصر الواقع. إذ يرى طه عبد الرحمن على سبيل لو قمنا بافتراض أن الإمكان له وجود. ⁽¹⁴⁾ أي يستدعي محلاً ومادة يكون فيه ⁽¹⁵⁾ من الناحية الواقعية لجاز أن يقسم الواقع إلى واقع يضمن واجب وجود الأشياء الموجودة، وأطلق طه عليه اسم المتحقق، وواقع الثاني يضمن الأشياء الممكن وجودها، وقد اصطلح عليه طه بالغير المتحقق. ⁽¹⁶⁾

ولو تم افتراض ذلك حقيقة لنقع حسب طه عبد الرحمن في تناقض وجدال، لأن الواقع لا يكون إلا متحققاً، فيترتب عن هذه الأقيسة الكلامية أن الإمكان عند الغزالي لا يمكن أن يعتبر فرداً من أفراد الواقعية، وإنما نعتبره فرداً من الواقع إذا كان متضمناً في "كل ما قدره العقل ولم يمتنع عليه تقديره". ⁽¹⁷⁾ أي أن كل ما يقدر من طرف العقل يتميز بخاصية إمكانية الوجود، وإما أن لم يقدر العقل إصدار عدم الشيء في الواقع يتميز بخاصية واجب الوجود، بينما إذا امتنع العقل عن تقديره اتصف بخاصية الاستحالة.

فضلاً على ذلك يتبين أن الإمكان وفق استراتيجية طه عبد الرحمن الحجاجية، قد بلغ مستوى إبداع المفاهيم التي تعد من مستويات الحجاجية. إذ يمكن التمثيل على ذلك بالملكة اللغوية الجديدة التي وظفها في تقويمه للممكن عند الغزالي إذ نذكر: الإمكان، المعنى المجموع، المعنى التركيبي، الواقع المحقق، الواقع الغير المحقق. والتي استخدمها طه عبد الرحمن كوسيلة استدلالية تفسيرية لحد الإمكان عند الغزالي.

(14) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص348.

(15) أبو حامد الغزالي، مقاصد الفلاسفة تحقيق سليمان دنيا، ط4، دار المعارف، مصر، 1961، ص118.

(16) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص348.

(17) المصدر نفسه، ص349.

وتبعاً لهذا الطرح يمكن القول إن الإمكان هو تلك الافراد التي لا يمكن أن نعتبرها فرداً من الواقع المتحقق، لكن في المقابل يمكن للعقل أن يقدرها.

ثانياً: خصائص العالم الممكن

بعد إثبات طه عبد الرحمن الوجود العقلي للإمكان في تصور الغزالي، سار نحو إبراز خصائصه وقد أشار طه أن الصفات التي يتصف بها عالم الإمكان قد أوردها الغزالي في كتبه، بين الظاهر والمضمر الذي يحتاج إلى التبين بشيء من التدقيق والتأمل.⁽¹⁸⁾

وقد وقف طه عبد الرحمن على خاصيتين لعالم الممكن:⁽¹⁹⁾

1. الخاصية المنطقية: والتي تشمل الاتساق والتمام.

أ. الاتساق: يقصد طه بالاتساق قانون عدم التناقض، وهو أول قانون منطقي يشترطه الغزالي في الممكن وينص على:

لا يمكن أن تجتمع القضية ونقيض القضية معاً في مجموعة القضايا الممكنة، لأنها تضم القضايا الصادقة معاً فقط.

ب. التمام: يقصد به الغزالي أن من الإمكانات ما لا يقبل الزيادة ولا يقبل النقصان إذ يقول -في معنى القول- كل موجود وجد على الوجه الذي وجد له، لأنه أكملها وما عداه من الإمكانات ناقص.⁽²⁰⁾ وعليه يتضح أن الممكن لا بد أن يكون لا يتناقض مع خاصية التمام، حتى لا يقع في النقص. وتنص هذه الخاصية على:

أن كل القضايا المرتبطة بالنفي والإثبات تدخل في مجموعة القضايا الإمكانية، بمعنى إذ وجت القضايا المثبتة في مجموع قضايا الإمكان لا توجد معها المنفية، والعكس صحيح إذا وجدت القضايا المنفية في مجموع قضايا الإمكان، لا توجد معها القضايا المثبتة.

ويتربط عن خاصية الاتساق والتمام أن كل القضايا التي تلتزم بهما هي عند الغزالي من العالم الممكن وبالتالي العالم الناقص بالمعنى السابق، هو الذي لا يعطي اعتباراً للقوانين المنطقية وبالتحديد مبدأ الثالث المرفوع، الذي ينص على صدق إحدى القضيتين

(18) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص 349.

(19) المصدر نفسه، ص 350.

(20) أبو حامد الغزالي، مقاصد الفلاسفة، المرجع السابق، ص 238.

المتناقضتين على الأقل، لان العالم الناقص لا تنتمي إليها القضية، ولا نقيضها بحيث يبقى غير محدد ولا مبين.

أما العالم المتناقض -العالم المستحيل- حسب طه عبد الرحمن هو الذي يخالف مبدأ عدم التناقض، ومرده أن تصدق على الأكثر إحدى القضيتين المتناقضتين، وبهذا المعنى يكون العالم المتناقض العالم الذي يتصادق فيه النقيضان نحو إثبات الشيء مع نفيه، أو إثبات الجزئية مع نفي الكلية، أو إثبات الاثنين مع نفي الواحد.

وفي هذا الصدد يرى طه عبد الرحمن انه بفضل نظرية العوالم الممكنة، يمكن للمنطقي أن يتصور ويصطنع نماذج تأويلية لانساقه المنطقية، إذ يمكن أن تكون العوالم الممكنة خالية جزئياً من الاتساق والتمام مع الحفاظ على التحديد أو انتشار المحال، وهذا راجع إلى التعديل الذي يمكن أن نقوم به على الصدق أو إضافة قيم أخرى إلى قمتي الصدق والكذب أو الاستغناء عن بعض القوانين التي تسبب في مفارقات اللزوم.

إجمالاً لخاصيتي الاتساق والتمام يستنتج انه إذا ما اتصفت قضية ما بالخصائص المنطقية يتبرر، انتماءها لمجموع القضايا الممكنة.

2: الخاصية الأنطولوجية:⁽²¹⁾

يختص العالم الممكن عند الغزالي بصفات أنطولوجية، من حيث أن العالم الممكن حقيقة موجودة وجوداً عقلياً وتلك الخصائص متمثلة في: التساوي، اللامتناهي والعمران.

1-التساوي: ومرد ذلك انه لا يمكن أن يكون هناك عالم ممكن، ولا يجوز أن يوجد مكانه عالم مغاير له. وبهذا الصدد ينبه طه عبد الرحمن أن لفظة مثل عند الغزالي تتحدد معاني من قبيل المساوي، التشبيه، الخلاف والضد، ويمكن ردها حسب طه إلى قسمين:

أ-العوالم الشبيهة أو القريبة: ومثالها أن تتعد أوجه التي كان من الممكن أن يحدث بها عالم الواقع، كأن يحدث في زمن قبل زمان حدوثه، أو أن يأتي بعد زمان حدوثه، أو يقع على هيئة صفات مغايرة لا تجعله خارج ماهيته المتعارف عليها.

ب. العوالم النظرية أو البعيدة: ومثالها تلك العوالم التي تتصف بصفات موازية ومخالفة لصفات هذا العالم من ناحية المقدار الوضع واتجاه في الحركة، وبالتالي كان من

(21) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص 352، 353.

الممكن أن يكون بداله.

ووفق لذلك حسب طه عبد الرحمن تتساوى كل العوالم كونها مقدورات، أما بالنسبة لخصائص هذا العالم الوقت المحدد والهيئة فلا يمنع التساوي.

2 - اللامتناهي: بمقتضى أن العوالم الممكنة قريبة وبعيدة من حيث سعتها، فهي تمتاز باللاتناهي.

فنظائر العوالم لا يتوقف زمنها عند حد يستحيل تخطيه، فكل زمن قبل وبعد تحقق العالم كان متناسب مع حدوثه وكلا الزمنين لا نهاية لهما، ووفقاً لذلك بالإمكان أن يقع هذا العالم في أي وقت من هذه الأوقات الغير متناهية.

وبالتالي يقع بصفات أخرى لا تخرجه عن حقيقة المعلومة، وعليه فتعدد العوالم الشبيهة راجع لتعدد الأوقات والصفات التي لا محدودية لها، وكذلك بالنسبة للعوالم البعيدة، لا يتوقف وصفها عند نهاية يمتنع تصور ما بعدها، فتتكاثر العوالم البعيدة بتكاثر الأوصاف.

3- العمران: تنص هذه الخاصية على انه توجد على الأقل ذات واحد تعمر العوالم، وكذلك بالنسبة لذات لا بد من وجود على الأقل عالم واحد يؤويها.

وعلى هذا الأساس توجد ذات واحدة بعوالم ممكنة متعددة، ويترتب عن ذلك متى تم افتراض حدوث العالم من أحد العوالم كانت ذاته معه وصفاتها تتغير مع الزمن، وكون الذات تنتقل وتتقلب يجعل العوالم تتصل فيما بينها، وتطلع بعضها على بعض إما كلياً أو جزئياً.

إجمالاً للخصائص الأنطولوجية يتوصل إلى أن العوالم الممكنة تتصف بالتساوي، اللاتناهي والعمران.

إذن يتبين التجديد الطاهائي على مستوى نظيره للخصائص المنطقية والأنطولوجية لفكر العالم الممكن، وذلك من خلال انتهاجه لمنهجية نظرية العوالم الممكنة كأداة منطقية برهن بواسطتها على الوجود العقلي للعوالم الممكنة وفق خصائصه المنطقية والأنطولوجية، وهنا طه عبد الرحمن قد وظف مستوى السلطة للحجاجية، الذي يكون

فمها الفيلسوف له خطى إبداعية تنسب له، ونجد هذا المستوى ضمن المفاهيم المغايرة، التي استعملها الغزالي في كتبه.

المطلب الثاني: أفضلية عالم الواقع ومبدأ الاعتراض

إن السؤال: هل هناك عوالم موازيا لعالمنا الواقعي؟ يعتبر إشكالية فلسفية، ومنطقية طرحتها نظريات متعددة من مثل النظريات الفيزيائية، ميكانيكا الكم ونظرية التضخم الكوني والتي توصلت إلى الإقرار بتواجد العديد من الأكوان.

ولو تم الأخذ بمسألة تعدد الأكوان كمسألة تطرح بدورها إشكالية أخرى تتعلق بمسألة الأفضلية، أي هل كل العوالم الممكنة تتساوى مع عالمنا الواقعي في الأفضلية أم أن عالمنا أفضل العوالم؟

ووفقا لذلك نتساءل: كيف وضح طه عبد الرحمن مسألة أفضلية عالم الواقع عند الغزالي؟ وكيف رد على معترضي عدم نسبية خطاب الأفضلية للغزالي، وعلى القول باللاتناهي التفاوت في أفضلية عالم الواقع؟

أولاً: القصد من أفضلية عالم الواقع.

لقد أقر الغزالي بأفضلية عالم الواقع، وتحدث عنه ضمن سياقاته الكلامية عن أن العالم واجب الوجود، وقد اصطلاح على خطابات الغزالي حول مسألة أفضلية العالم باسم "مقالة الأبدعية" كما أشار إلى ذلك طه عبد الرحمن.⁽²²⁾ ويقصد الغزالي بأفضلية العالم أن الله سبحانه وتعالى في كل ما خلق لا يوجد فيه تباين ولا خلل، وهذا يتبين لمتمعني النظر في خلق الله إذ يقول الغزالي ما نصه: «فكله عدل محض لا جور فيه، وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي، وليس في الإمكان أصلاً أحسن منه ولا أتم ولا أكمل». ⁽²³⁾

فلا وجود لعالم أفضل من العالم، الذي يتصف بالعدل والترتيب، ووجوده مقدر كما ينبغي وبعبء عن الجور والظلم وعن كل ما يتعلق بالفساد.

(22) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص 373.

(23) أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، د ط، دار الفكر، القاهرة، 1975، ص 181.

ومنه فمبدأ الأفضلية عند الغزالي لا يمكن أن يقترن إلا بالعالم الواقعي، فلا مجال لأكون مغايرة تتمايز بأفضليتها عن عالمنا.

ويرى طه عبد الرحمن أن الأفضلية التي أقر بها الغزالي للعالم، والتي يمكن اختصار مضمونها في "ليس في الإمكان أبدع مما كان". قد أثارت جدلاً بين من ناصرها وبين من أبطلها. (24)

هذا الوضع دفع بطه عبد الرحمن إلى الاعتراض عن الدعوى القائلة بعدمية نسبة الإبداعية للغزالي، وعن الدعوى القائلة باللاتناهي التفاوت في أفضلية العالم، وعليه كيف رد طه عبد الرحمن عن ذلك؟

ثانياً: الاعتراض الطاهاني عن عدم نسبة الأفضلية للغزالي.

قد تعرض طه عبد الرحمن لدعوى القائلة بنفي نسبة الإبداعية للغزالي أولاً بطرح الأدلة، التي استندوا إليها والتي تتمثل في: (25)

أ. أن ورودها في بعض كتب الغزالي لا يثبت نسبتها إليه.

ب. أن مضمونها متناقض مع اعتقاد وفكر الغزالي.

بيدا أن هذين الدليلين عند طه عبد الرحمن باطلة، لأن مضمون خطاب الأفضلية كما أشار إلى ذلك طه يتألف من ثلاث عناصر جوهرية وهي كالتالي: (26)

1— حكم الأفضلية [الإبداعية]: ومرده أنه لا وجود ولا مكان أفضل وأكمل من هذا العالم.

2. أدلة حكم الأفضلية: تمثلت في صفة القدرة، فخالق هذا الكون حسب الغزالي إما قادر أو غير قادر. أي لو كان الخالق قادر وامتنع عن خلق أفضل العوالم لزم عن ذلك البخل والظلم وكلا الصفتين باطلة في حقه تعالى، ولو كان الخالق غير قادر لزم عنه بالضرورة انتزاع حق الألوهية وإثباتها لمن هو أقدر منه.

(24) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص 373.

(25) المصدر نفسه، ص 374.

(26) المصدر نفسه، ص 374، 375.

3. المبادئ التي تستند إليها الأفضلية: وقد عدّها طه في مبدأ التضاييف، مبدأ الإضافة إلى الأشخاص، مبدأ الإضافة إلى الأوقات، مبدأ التقديم ومبدأ التفاضل.

إذن الدعوى المستندة إلى الدليلين السابقين وفق الاعتراض الطاهائي باطلة، وهذا راجع إلى أنَّ مسألة الأفضلية التي جاء بها الغزالي قد وردت بحكم ودليل ومبادئ في كتب الغزالي من مثل كتاب إحياء علوم الدين وكتاب الأربعين في أصول الدين، وغير ذلك من كتب الغزالي. بالإضافة إلى ذلك هناك من تلاميذ الغزالي من نقل خطابه عن العالم الأفضل ودونه مع الإشارة إلى إمكانية الطعن في نسبتها إليه، وهو فخر الدين الرازي في كتابه التفسير الكبير.⁽²⁷⁾

ثالثاً: الاعتراض الطاهائي على دعوى لا تنهي التفاوت في أفضلية العالم

قبل رد طه عبد الرحمن على دعوى لا تنهي التفاوت في الإبداعية تطرق إلى تبين صفتين اتخدهما كمعيار للإبداعية:⁽²⁸⁾

-تمثل المعيار الأول في عدم وجود تباين -تفاوت- أو خلل -فطور- في الخلق، ويمكن القول بلغة الغزالي هناك استواء في الخلق.

-أما المعيار الثاني فتمثل في العدل في القسمة "الرزق".

وبمقتضى هذين المعيارين يمكن حسب طه القول إن هذا العالم أكثر إبداعية من غيره، وأكثر استواء في الخلق واعدل في الرزق من غيره، ومعلوم أن الاستواء متعلق بالذات الموجودة، والعدل متعلق بصفة أفعال الموجودات.

وقد ترتب عن هذين المعيارين الاعتراض الطاهائي على اللاتناهي في درجات أفضلية العوالم، إذ سلم مدعياً بخصائص منطقية قائمة في الاستعمال العادي في التعبير كقولنا هذا أبداع من ذلك، ومن هذه الخصائص نذكر:⁽²⁹⁾

.خاصية اللانعكاس: لا وجود لعالم أبداع خلق ورزق من نفسه.

.خاصية اللاتناظر: كل عالم أبداع خلق ورزقا من نفسه.

(27) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص 376.

(28) المصدر نفسه، ص 377.

(29) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص 377.

— خاصية التعدي: كل عالم أبداع خلق ورزقا من عالم ثان، وثاني أبداع من الثالث وهكذا دواليك أي " الأبداع من الأبداع أبداع"

— خاصية الاقتران: كل عالين متميزين إحداهما أبداع من الآخر، وهذه الخصائص من المنظور الطاهائي تؤدي إلى نشوء علاقات تراتبية بين العوالم الممكنة سماها طه ب "علاقة الترتيب الكلي الأقوى".

ولما كان حسب طه المدعي بعدم تناهي الإبداعية يفهم أفضلية العالم على أن عالم الواقع قد بلغ نهاية إبداعه، فقد لزم إضافة خاصية أخرى وتتمثل في خاصية التفوق، ومفادها مهما كان عالم الممكن فان عالم الواقع أفضل منه خلقا ورزقا.⁽³⁰⁾

بناء على الخصائص السابقة يتضح أن علاقة الترتيب الكلي الأقوى التي تبناها المدعي ذي عنصر أكبر، وهذا ما لا يتفق والوجه الذي استعمل به الغزالي صفة لا أبداع ولا أخلق، إذ يقصد بلا أبداع أن المدعي بلا تناهي الأبداعية يسلم بأنه لا وجود لعالم كامل، لأنه دائما هناك عالم أكمل منه وهكذا.⁽³¹⁾ بمعنى أن العوالم الممكنة على الدوام تسعى إلى الكمال لكن لا تبلغه.

ويقصد بلا أخلق انه لو تم الافتراض أن الإرادة الإلهية، اتجهت إلى خلق أبداع العوالم لا امتنعت عنه، ويعود ذلك إلى ما من عالم إلا وفوقه عالم أفضل أو أبداع منه، وبالتالي تبقى القدرة الإلهية دون تعلق بأي عالم مالا يخرجها إلى الوجود وهذا واضح البطلان عند طه عبد الرحمن.⁽³²⁾

ومجمل القول عن الممكن وأفضلية عالم الواقع في طرح الغزالي انه مغاير ومتمايز لما تقربه نظريات تعددية الأكوان، التي تنص على عدم حصر الأفضلية في عالم أحادي، بينما العالم عند الغزالي واجب الوجود وان مبدأ الأفضلية خاص بعالم الواقع لا غير.

وقد بين طه عبد الرحمن موقف الغزالي هذا بالاعتماد على مبدأ الاعتراض، على دعوى عدم وجود خطاب الأفضلية للغزالي، ولا وجود للاتناهي في الأبداعية. وعلى هذا الأساس يكون

(30) طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المصدر السابق، ص 377.

(31) المصدر نفسه، ص 378.

(32) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

طه قد وظف وبلغ مستوى الثاني من الاستراتيجية الحجاجية، والذي تتمثل في النموذج الجدلي الذي يقوم على بناء حقائق مغايرة، والاستدلال عليها بهدم دعاوي الحقائق السابقة.

الخاتمة:

تحصيلاً لما سبق لموضوع استراتيجية طه عبد الرحمن الحجاجية في قراءة التراث المنطقي. نظرية العوالم الممكنة بين الممكن ومبدأ أفضلية العالم. تم الوصول إلى:

أن الحجاجية في الخطاب تعد أسلوب معرفي، ومنهجي يعترض لها الخطيب بغية توظيف مبدأ الاستدلال والبرهان.

وقد تولد عن القراءة التجديدية الطاهائية لفكر الإمكان، ومبدأ أفضلية العالم عند الغزالي مفاهيم جديدة منتجة لفاعلية الفيلسوف الحجاجية، ومرد ذلك التزام طه عبد الرحمن بمستويات الحجاجية: مستوى المفهوم، مستوى الأنموذج الجدلي ومستوى السلطة، والتي لا تظهر للباحث إلا إذا تم قراءة الخطاب الطاهائي قراءة استنتاجية تحليلية، لأساليب الحجاج وغيرها كثير.

ونستنتج كذلك أن طه عبد الرحمن قد استند لنظرية العوالم الممكنة كأداة منطقية حديثة في تحليله لحد الممكن وخصائصه المنطقية -الاتساق والتمام- وخصائصه الأنطولوجية-التساوي، اللامتناهي والعمران-

وبمقتضى ذلك فالممكن عند الغزالي ليس له هيئة إلا هيئة العالم الواقعي واجب الوجود المرتقي بخواصه الإبداعية، والتي توضححت في قول الغزالي "ليس بالإمكان أبدع مما كان"، ومن خلال اعتراض طه عبد الرحمان لدعوى عدم نسبية مقال الأبداعية للغزالي، التي أبطلها بعرض ثلاث عناصر جوهرية تحتويها الأبداعية: حكم الأفضلية، أدلة حكم الأفضلية والمبادئ التي تستند إليها الأفضلية، وبإبطال الدعوى القائلة باللاتناهي التفاوت في أفضلية العالم وفق معيارين: الاستواء في الخلق والعدل في القسمة.

إذن الإنتاجات الموصوفة بتقنيات الحجاج أكثر فعالية في الواقع، وأكثر تأثير في الجمهور.

ومثل هكذا مواضيع تثير الباحث في البحث فيها نظرياً وتطبيقياً، بغية اكتساب تقنية المحاجة وأسلوب التحليلي والمعارضة على وجهها الحق.

المراجع:

المعاجم اللغوية:

- ابن المنظور، لسان العرب، ط4، دار الصادر، بيروت، ج 5، 2005.
- الفيروز أبادي مجد الدين محمد بن يعقوب، قاموس المحيط، مراجعة ابن محمد الشامي، زكريا جابر محمد، د ط، دار الحديث، القاهرة، 2008.
- مجمع اللغة العربي، معجم الوسيط، ط4، مكتبة الشروق الدولية، 2004.

المراجع العربية:

- ابو بكر العزاوي الخطاب والحجاج، ط1، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، لبنان، 2010.
- أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، د ط، دار الفكر، القاهرة، 1975.
- أبو حامد الغزالي، مقاصد الفلاسفة تحقيق سليمان دنيا، ط4، دار المعارف، مصر، 1961.
- طه عبد الرحمن اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط1، المركز الثقافي العربي، دار البيضاء، 1998.
- عمارة ناصر الفلسفة والبلاغة مقارنة حجاجية للخطاب الفلسفي، ط1، منشورات الاختلاف، لبنان، 2009.
- مرتضى جابر كاظم، اللسانيات التداولية في الخطاب القانوني، ط1، منشورات ضفاف، لبنان، 2015.

المراجع الأجنبية باللغة الفرنسية:

- Oswald Ducrot, Le dire et le dit, éd, minuit, paris, 1984 .
- Miche Mayer, qu'est, ce que l'argumentation ? librairie philosophique, j. VRAIN, paris, 2005.

المراجع الأجنبية باللغة العربية:

- ادموند هوسرل، الفلسفة علما دقيقا، ترجمة، محمود رجب، ط1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002.